البلاغة القرآنية عند الخطابي

د.عبد الجليل مصطفاوي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية
جامعة-تلمسان-

الملخص:

سأقف في هذه الدراسة عند مصطلح البلاغة في رسالة الخطابي[1] (بيان إعجاز القرآن) ؛ فقد ورد مصطلح البلاغة - في هذه الرسالة الثرية على الرغم من قصرها وإيجازها- متصلا بالقرآن الكريم في مواطن متعددة من تحليلات الخطابي .

لقد ورد المصطلح أولاً في أثناء تعداده لوجوه الإعجاز القرآني التي بدأها بالصَّرْفَة ثم الإخبار عما يكون في مستقبل الزمان نحو قوله تعالى ﴿الم، غُلبتِ الرومُ في أدنى الأرض، وهم من بعد غَلَبِهم سيَغْلِبون في بِضْعِ سنين ﴾[2].

ثم تحدث بعد ذلك عن الوجه الثالث من وجوه الإعجاز، وهو " البلاغة " الذي عزاه إلى الأكثرين من علماء أهل النظر، كما قال. غير أن معظم هؤلاء جروا في الحديث عن بلاغة القرآن على ضرب من التقليد وغلبة الظن دون تحقيق في الأمر أو إحاطة به. فالبلاغة عند هؤلاء هي شيء يهزنا، و يحرك مشاعرنا ، ويكون له مفعول السحر في نفوسنا التي تطرب له ، ولكننا لا نستطيع تحديد ملامحه أو تصوير معالمه ، أو كشف أسباب وقعه في النّفوس الذواقة. فللكلام الموصوف بالبلاغة عذوبة في السَمع ، وهشاشة في النفس و لكننا لا نستطيع الوقوف على علّة ذلك أو سببه[3].

وقد مثّل هؤلاء – كما يذ كر الخطابي – بالقصّة التي حدثت بين ذي الرمّة الذي مرَ به جرير ، وقد عمل قصيدته التي مطلعها:

نَبَتْ عيناكَ عن طَلَلٍ بحُزْوَى عفتْهُ الريحُ وامتَنَحَ القطارا

فأنجده بأبيات تزيد فيها، وحينما أنشدها الفرزدقَ، وبلغ الأبيات المدخولة قال الفرزدق:" ليس هذا من بحرك؛ مضيفها أشدُّ لحَيْن منك "[4]. والقائلون بهذا الرأي يرون أن الفرزدق قد أدرك ذلك بطبعه ولطف ذهنه .

ومن هنا نخلص إلى أن البلاغة عند هؤلاء تتصل بذوق السامع ومقدرته على الإحساس بجمال الكلام وأثره في النفوس، وأن ذلك أمر لا يمكن تحديده أو تصويره. ولكن هل يقنع الخطابي بهذا المذهب في الحديث عن البلاغة القرآنية..؟

الواقع أن الخطابي لا يقنع بذلك؛ إذ لا بد للكلام الذي هذه صفته، ولا سيما القرآن الكريم الذي تصطلح من أجله " الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتَحْصَرُ الأقوال عن معارضته، وتنقطع به الأطماع عنها، أمر لا بد له من سبب بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحق هذا الوصف "[5]. ومن هنا فلا بد من الاستقراء والتقصي للوقوف على علة تفسِّر هذا الأثر الذي يحدثه الكلام البليغ في النفوس .

وقد علل الخطابي ذلك باختلاف أجناس الكلام، وتفاوت مراتبها في التبيان، وتباين درجاتها في البلاغة. وهذه الأجناس تتراوح بين الأوصاف الثلاثة التالية؛ فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل.

فالبلاغة عنده لا تعدو هذه الأقسام الثلاثة. وقد حازت البلاغة القرآنية من كل قسم من هذه الأرقام حصة، ومن كل نوع من أنواعها شعبة. ومن ثم فقد جمعت بين صفتين من الكلام هما: الفخامة والعذوبة اللذين هما كالمتضادين؛ لأن:

العذوبة ← نتاج السهولة .

و الفخامة ← نتاج الجزالة و المتانة.

يقول الخطابي:" فكأن اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما فضيلة خُصَّ بها القرآن ، يسّرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه "[6].

وقد تكرر حديثه عن البلاغة والعذوبة في مواقع كثيرة من رسالته؛ حيث يقول عن القرآن الكريم بأنه :" جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة و السهولة "[7].

وقد قاده دفاعه عن البلاغة القرآنية إلى الرد على من يحاول الحط من شأنها لخلوها من الغريب؛ لأن الغرابة- كما يؤكد - ليست شرطا من شروط البلاغة " وإنما يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس والأجلاف من جفاة العرب "[8]. فالبلاغة القرآنية مترهة عن ذلك؛ لأنها تتوخى النمط الأقصد من الألفاظ.

وهو يرى أن العلة في تفوق البلاغة القرآنية أنها توفرت لها الأركان التالية: فصاحة الألفاظ، وحسن نظوم التأليف، وصحة المعاني[9]. وهو هنا يخالف رأي الجاحظ- الذي يذهب في بعض كلامه إلى أن المعاني مطروحة في الطريق- إذ يقول:" فأما المعاني التي تحملها الألفاظ فالأمر في معاناها أشد؛ لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار"[10].

فعمود البلاغة عنده أن يوضع كل" نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانَه غيرُه جاء منه: إما تبدّل المعنى الذي يكون معه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة "[11].

وهو يركز على أن اللفظ يكون بليغاً في ذاته؛ أي أن اختياره يكون على أساس تأديته التامة للمعنى المنوط به. وقد قاده هذا الأمر إلى الإشارة إلى أن في الكلام ألفاظاً متقاربة المعاني؛ ممّا يجعل أكثر الناس يتوهمون أنها متساوية في إفادة المقصود بالخطاب، نحو العلم والمعرفة، والحمد والشكر، والشح والبخل، والنعت والصفه، و"عن"و"من"... في حين أن بينها فروقاً دقيقة لا يعرفها إلى المتأمل لهذه اللغة الشريفة[12].

وقد دعاه ذلك إلى الرد على الطاعنين في بلاغة القرآن، والمنكرين أن تكون عباراته وألفاظه قد وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها؛ إذ ورد في القرآن — كما يدَّعون- أشياء بخلاف هذا الوصف كقوله تعالى﴿ أكِلَهُ الذئب ﴾[13]. قالوا إنما " يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصاً الافتراس، يقال: افترسه السبع. هذا هو المختار الفصيح في معناه، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع "[14].

وكقوله تعالى﴿ ذلك كيْلٌ يسيرٌ ﴾[15]، قالوا " وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحاً يقول: كِلتُ لزيد كيلاً يسيراً إلا أن يعني به أنه يسير العدد والكمية "[16].

وكقوله تعالى﴿ هلكَ عنِّي سُلطانِيَهْ ﴾[17]، قالوا " وإنما يستعمل لفظ الهلاك في الأعيان والأشخاص كقوله: هلك زيد، وهلك مال عمرو ونحوهما، فأما الأمور التي هي معان وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها. ولو قال قائل: هلك عن فلان علمه أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقبحاً "[18].

وعرضوا آيات كريمة أخرى وسَمُوا عباراتها بسوء التأليف وقصر الباع في النَّظْم ودلالات الألفاظ[19]. وقد ردَّ الإمام الخطَّابي كلَّ افتراءاتهم بتبصُّر ودقّة يشِيَان بفهم كبير لأسرار العربية ودقائقها، ومقدرة عجيبة على تفهُّم النص القرآني وظلاله. قال:" والجواب أن القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند، وليس الأمر في معاني هذه الآي على ما تأولوه، ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه "[20].

فأما قوله تعالى﴿ أكله الذئب ﴾[21] فإن " الافتراس معناه في فعل السبع القتل حسب، وأصل الفَرْس دقُّ العنق. والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً؛ وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادَّعَوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى؛ فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل "[22]. هذا فضلاً على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع، كما ذكر الخطابي الذي أورد أشعاراً وأقوالاً دالة على ذلك[23].

وأما قوله تعالى﴿ ذلك كيْلٌ يسيرٌ ﴾[24] فقال الخطابي بشأنه " فإن معنى الكيل المقرون بذكر البعير المكيل؛ والمصادر توضع موضع الأسماء كقولهم: هذا درهم ضرب الأمير،وهذا ثوب نسج اليمن؛ أي مضروب الأمير ونسيج اليمن. والمعنى أنا نزداد في الميرة

المكيلة إذا صحِبَنا أخونا حمل بعير؛ فإنه كان لكل رأس منهم حمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام، فكان ذلك في السنين السبع القحطة، وكانوا لا يجدون الطعام إلا عنده ولا يتيسر لهم مرامه إلا من قبله؛ فقيل على هذا المعنى﴿ ذلك كَيْلٌ يسيرٌ ﴾ أي متيسر لنا إذا تسببنا إلى ذلك باستصحاب أخينا "[25]. وذكر الخطابي أيضاً أن هذا الاستعمال شائع في كلام العرب لما يسهل من الأمور، وأورد له شواهد شعرية[26].

وأما قوله تعالى﴿ هلكَ عنِّي سُلطانِيَهْ ﴾[27] فإنهم بزعمهم أن الهلاك " لا يستعمل إلا في تلف الأعيان فإنهم ما زادوا على أن عابوا أفصح الكلام وأبلغه. وقد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة كقوله عز وجل﴿ وآيةٌ لهم الليلُ نَسْلَخُ منه النهارُ ﴾ [28]، والسلخ ههنا مستعار وهو أبلغ منه لو قال نخرج منه النهار، وإن كان هو الحقيقة. وكذلك قوله سبحانه ﴿ فاصدعْ بما تُؤمَرْ ﴾[29] هو أبلغ من قوله: فاعمل بما تؤمر وإن كان هو في الحقيقة، والصدع مستعار، وإنما يكون ذلك في الزجاج ونحوه من فِلِّز الأرض، ومعناه المبالغة في فيما أمر به حتى يؤثر في النفوس والقلوب تأثير الصدع في الزجاج ونحوه. وكذلك قوله تعالى ﴿ هلَكَ عنِّي سلطانيه﴾؛ وذلك أن الذهاب قد يكون على مراصدة العود، وليس مع الهلاك بُقْيَا ولا رُجْعَى، وقد قيل إن معنى السلطان ههنا الحجة والبرهان "[30].

وقد رد الخطابي أيضاً على هؤلاء الطاعنين في بلاغة القرآن الكريم، والذين قالوا إن من عيوبه الحذف والاختصار كما في قوله تعالى﴿ ولو أن قرآناً سُيِّرتْ به الجبالُ أو قُطِّعتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى﴾[31]؛ فقال إن الإيجاز ههنا في موضعه، وقرّر حقيقة بيانية هي أنّ حذف" ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة"[32].

وإنما جاز حذف الجواب في ذلك وحسن؛ لأنّ " المذكور منه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه، ولأنّ المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به. والمعنى: ولو أنّ قرآناً سُيِّرتْ به الجبالُ أو قُطِّعتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى لكان هذا القرآن "[33]. وقد أكّد أنّ الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر؛ لأن " النفس تذهب في الحذف كل

مذهب،ولو ذكر الجواب لكان مقصوراً على الوجه الذي تناوله الذكر؛ فحذف الجواب كقوله: لو رأيت عليّاً بين الصفين! وهذا أبلغ من الذكر لما وصفنا "[34]

والخلاصة أن مصطلح "البلاغة"، عند الخطابي، مرتبط باللفظ والمعنى والتأليف، مثلما أوضحنا. ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن هذا المصطلح عنده كان متداخلا ومتشابكاً مع عدة مصطلحات أخرى كالبيان والفصاحة. فهو يقول مثلاً:" وليس ذلك بالمستحسن ولا بالمختار عند أهل البلاغة وأرباب البيان "[35].

وليس ذلك غريباً إذا علمنا أنّ هذا الأمر كان شائعاً عند القدماء؛ فقد كانت مصطلحات البلاغة والبيان والبديع والفصاحة ،والخطابة أحيانا، تأخذ نفس المدلولات في مباحث علمائنا القدامى، و لم تتحدد معالمها ومفاهيمها إلا في القرون المتأخرة بدءاً من عصر السكاكي، المتوفى في سنة 626هـ. السكاكي الذي مخض زبدة البلاغة العربية، وهذّب مسائلها، ورتّب أبوابها، كما يذكر ابن خلدون[36].

المراجع

(1)هو الإمام الأديب اللغوي أبو سلمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطّابي البُستي، ولد في عام 319 هـ، وأقام ببُست، وإليها نسب، وفيها توفي عام 388هـ.

(2)الروم:1- 3

(3) ينظر بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابي:24 ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق:د. محمد زغلول سلام و محمد خلف الله، دار المعارف بمصر، ط2، 1387هـ - 1968م.

(4) نفسه:25.

(5)بيان إعجاز القرآن:25.

(6)نفسه:26.

(7) نفسه:37.

(8) نفسه:37.

(9) نفسه:26.

(10) نفسه:36.

(11) نفسه:29.

التصور اللغوي في البلاغة القديمة

د. رمضان كرد .
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
جامعة –تلمسان–

الملخص

يحاول هذا البحث تبيين التصور اللغوي في الموروث البلاغي، و كيف تم توظيف اللغة لإحراز المنافع الخاصة و تحقيق النجاح و الصلة بين الجمهور وإيهامه بمعجم الدعاية، كما يشير إلى حرص بعض البلاغيين على الزخرف اللفظي، و حسن الإفهام وسهولة الإخراج والكلام المؤثر و الحجاج المقنع.

و يقف البحث عند تأثير الثقافة في اللغة،الأمر الذي أدّى إلى التشبث بمبدإ الثبات و الاستقرار وتقييد الدلالة في اللغة العربية. واستبعاد مبدإ التطور اللغوي .

و يصل إلى أن اللغة في هذا الموقف البلاغي لم تستعمل كفن خالص، و بعبارة أخرى،لم تستعمل اللغة لخدمة ذات اللغة، أي توسيع اللغة أو تعميقها أوإعطائها جانبا من الحيوية و الحرية و التلقائية.

تتميز الأمة العربية بخصوصيات عديدة من بينها لغتها التي درج الباحثون على الانتباه إليها ، فالعربي شديد التأثر بالألفاظ و موسيقاها و معانيها، يشده الكلام شدا حتى كانت فنون الشعر و الخطابة من نشاطاته البارزة، و حتى أصبح التميز فيها أمرا يأتي صاحبها بحظ حسن، وكثيرا ما حقق لصاحبه حضوة و مكانة في أكثر من مجال، كأن يأتيه بالجاه أو المال أو العطف أوالصفح، فخليفة المسلمين يمكن أن يسامحه عن إثم أو جريرة، و الآخر قد يهبه ما يريد، و يعود ذلك كله إلى سحر الكلمة و عذوبتها، فالكلمة تحمل معنى صادقا دقيقا يتأكد بردود فعل صاحبها، حيث تقترن بذاته اقترانا يجعله شديد التأثر بالبيان الساحر.

(12) نفسه:29 وما بعدها.

(13) يوسف:17.

(14) بيان إعجاز القرآن:37.

(15) يوسف: 65.

(16) بيان إعجاز القرأن:37.

(17) الحاقة:29.

(18) بيان إعجاز القرآن:38.

(19) نفسه:38- 40.

(20) بيان إعجاز القرآن:40-41.

(21)يوسف:17.

(22) بيان إعجاز القرآن:41.

(23) نفسه:41-42.

(24) يوسف: 65.

(25) بيان إعجاز القرآن:42.

(26) نفسه:42-43.

(27) الحاقة:29.

(28) يس:37.

(29) الحجر:94.

(30) بيان إعجاز القرآن:44.

(31) الرعد: 31.

(32) بيان إعجاز القرآن:52.

(33) نفسه: 52.

(34) نفسه:52.

(35) نفسه:40.

(36) ينظر مقدمة ابن خلدون:458، دار العودة – بيروت.